القسم الأول

المعارضة من زاوية التنظير

الفصل الأول

المفهوم والأبعاد

جاء فى لسان العرب:

. . . وعارضَ الشيءَ بالشيء مُعارَضَة: قابَلَهُ، وعَارَضْتُ كتابى بكتابه، أى قابلتُه، وفلان يعارضنى، أى يبارينى. وفى الحديث أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يعارضه القرآن كلَّ سنة مرة، وأنه عارضه العام مرتين. قال ابن الأثير: أى كان يدارسه جميعَ ما نزل من القرآن، من المعارضة، أى: المقابلة[1].

. . . والعَرَض، والعارض: الآفة تعرِض فى الشيء. . . وعَرَضَ له الشك ونحوه من ذلك.

وشبهة عارضة: معترضة فى الفؤاد. وفى حديث على ـ رضى الله عنه ـ **«يقدح الشك فى قلبه بأول عارضة من شبهة»**[2].

ورجل عِرِّيض: يتعرض الناسَ بالشر[3].

والعارض: ما سد الأفق من الجراد والنحل[4].

وكل مانع منعك من شغل وغيره من الأمراض فهو عارض. وقد عرض عارض، أى: حال حائل، ومنع مانع. ومنه يقال: لا تَعْرِضْ، ولا تَعْرَضْ لفلان: أى لا تعْرِضْ له بمنعك باعتراضِك أن يقْصِدَ مرادَه ويذهبَ مذْهَبَه[5].

(١) ابن منظور المصرى: لسان العرب ٧/ ١٦٧.

(٢) السابق ٧/ ١٦٩.

(٣) السابق ٧/ ١٧٠.

(٤) السابق ٧/ ١٧٤.

(٥) السابق ٧/ ١٧٩.

وعارضتُه فى المسير، أى: سرتُ حياله وحاذيتُه، ويقال: عارض فلان فلانًا: إذا أخذ فى طريق، وأخذ فى طريق آخر فالتقيا. وعارضتُه بمثل ما صنع، أى أتيتُ إليه بمثل ما أتَى، وفعلتُ مثل ما فعل[1].

وفى المعجم الوسيط:

. . . وعرض له عارض من الحمى: أصابه، ويقال: سرْتُ فعرض لى فى الطريق عارض من جبل ونحوه: مانع[2].

وعارض فلان فلانًا: جانَبَه وعَدَل عنه. وعارض الكتابَ بالكتاب: قابله به، وعارض فلانًا: باراه وأتى بمثل ما أتى به. ويقال: عارضه فى الشعر وعارضه فى السير، وعارضه بمثل صنيعه، وفلانًا: ناقضه فى كلامه وقاومه.

و(فى القضاء) عارضَ فى الحكم الغيابى: رفعه إلى المحكمة التى أصدرته طالبًا إلغاءه أو تعديله.

والتعرض (فى القضاء): فعل مادى أو إجراء قانونى يقصد به منازعة الحائز فى حيازته[3].

وفى المنجد:

عارض معارضةً وعِراضًا: عدل عنه وجانبه. وعارض الكتاب بالكتاب: قابله به. وعارضه بمثل صنيعه: فعل مثل فعله، وأتى إليه بمثل ما أتى. وعارض الرجلَ: ناقض كلامه. وعارضه: قاومه. وعارضه: باراه[4].

* * *

(١) السابق ٧/ ١٨٦.

(٢) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون ٢/ ٥٩٩.

(٣) السابق ٢/ ٦٠٠.

(٤) المنجد، للويس معلوف ٤٩٨.

ومن استعراض مادة «عرض» فى المعاجم اللغوية ـ قديمها وحديثها ـ نرى أن كلمة «المعارضة» لها معان متعددة ، أهمها:

١- المقابلة: ومنه معارضة الكتاب بالكتاب، أى: مقابلته. ومُدارَسةُ جبريل رسول الله القرآن تسمى المعارضة؛ لأنه يقابل حفظه على حفظه.

٢- المنع: وكل مانع من تحقيق الغرض فهو عارض.

٣- المخالفة فى الطريق: بمعنى أن يسلك شخص طريقًا غير الذى سلكه الآخر.

٤- مجانبة الآخرين والعدول عنهم.

٥- مناقضة الآخرين فى كلامهم ومقاومتهم.

٦- المباراة والمنافسة.

٧- نظم قصيدة على نفس الوزن ونفس القافية لقصيدة شاعر آخر مع إرادة التحدى[1].

وليس هناك فارق جوهرى بين كل هذه الاستعمالات، فهى كلها تلتقى عند جوهر واحد، هو «المواجهة والمخالفة والمنع والتحدى».

* * *

وهذا الاستعمال اللغوى كان ركيزة ـ ولا شك ـ للاستعمال الاصطلاحى «للمعارضة»، فهى تعنى فى المفهوم السياسى العام «الرأى أو الصوت الآخر». ولكن هذا المفهوم يرتبط فى الواقع السياسى الحاضر «بذلك الشكل من أشكال النظم السياسية حيث تنقسم الحياة السياسية بين طرفين، أحدهما يكون فى السلطة ويطلق عليه «الحكومة»، والثانى يكون خارج السلطة ويطلق عليه «المعارضة»، حينئذ تكون دلالة اللفظ تتجه إلى ذلك التكوين الواقع خارج

(١) وقصد التحدى عنصر جوهرى فى «المعارضة الشعرية». أما إذا أعجب الشاعر بقصيدة لشاعر آخر، فدفعه هذا الإعجاب إلى نظم قصيدة على وزنها وقافيتها فعمله هذا «متابعة» لا «معارضة».

السلطة أيًّا كان شكله... قد يكون حزبًا، أو جماعة، أو حركة، فكل هذه التكوينات تتجه إليها دلالة «المعارضة» لتعبر عن القوى غير المساندة للحكومة والتى تقف منها موقف الضد أو الرفض»[1].

ومازالت المعارضة OPPOSITION مصطلحًا يستعمل فى القانون الدستورى، وفى علم السياسة، ويقصد به الأحزاب والجماعات السياسية التى تناضل للاستيلاء على الحكم.

وغالبًا ما تمارس المعارضة فى الإطار الشرعى وضمن المؤسسات الثابتة. ففى بريطانيا العظمى يتيح التشريع الرسمى فى الدولة للمعارضة ممارسة نشاطها بملء حريتها. غير أن المعارضة قد ترفض أحيانًا النظام السياسى القائم، فتتمرد على قواعده وأصوله، مما يضفى عليها طابع التطرف[2].

وفى الأنظمة الديمقراطية يمتلك أعضاء المعارضة - إضافة إلى مشاركتهم فى الرقابة على العمل الحكومى عن طريق المناقشات وإجراء الأسئلة - حق الكلام - كأى نيابى - الذى ينظمه النظام الأساسى للجمعيات النيابية، وحق التعديل الذى يعترف به الدستور، وتظهر أهمية إمكانيات التعبير الممنوحة للأقلية فى أنها تتيح للمعارضة إجبار الحكومة على شرح أعمالها، وعلى المناقشة[3].

وهناك فارق مهم يميز المعارضة فى المعنى الاصطلاحى الغربى الذى يفترض انقسام الحياة السياسية ما بين حكومة ومعارضة تؤدى كل منهما دورها وفقًا لقواعد وأصول، وتقبل تبادل الأدوار بالاحتكام للقاعدة الشعبية فى انتخابات عامة يطبق فيها مبدأ التصويت، ومن ثم يفوز الحاصل على أكبر عدد من الأصوات (الأغلبية) بدور الحكومة، ويبقى للحاصل على العدد الأقل من الأصوات (الأقلية) دور المعارضة، حيث تصير المعارضة

(١) نيفين عبد الخالق: المعارضة فى الفكر السياسى الإسلامى، ص ١٢.

(٢) موسوعة السياسة: دكتور عبد الوهاب الكيالى وآخرون - المجلد السادس/ ٢٣١.

(٣) المعجم الدستورى: أوليفيه دوهاميل - أيف مينى، ترجمة منصور القاضى / ١١٠٢.

فى تلك المجتمعات تعبيراً عن حرية الأقلية فى أن تعارض فى مواجهة حق الأغلبية فى أن تحكم[1].

كما أن حق المعارضة فى وقتنا الحاضر يشمل ما اصطلح عليه بالحقوق السياسية التى تتكون من حريات الفكر والرأى والاجتماع وتكوين الأحزاب وحريات الصحف. وهذه الحقوق السياسية تتفرع من أصل عام، هو أحد الأركان الأساسية فى الديمقراطية، وهو الحقوق والحريات العامة التى يجب أن تكون مصونة ومكفولة فى النظام الديمقراطى، فالديمقراطية إذ تجعل السيادة للشعب متمثلة فى الأغلبية التى تحكم تقيد هذه السيادة بعدم المساس بالحقوق والحريات العامة للأفراد، بحجة إرادة الأغلبية، فالمساس بحرية من الحريات يتضمن فى ذات الوقت إهداراً لباقى الحريات. كما أن إهدار حرية البعض يؤدى إلى إهدار حرية الجميع على المدى الطويل. ومعنى ذلك أن ضمان حرية المعارضة هو الذى يكفل استخلاص إرادة الأغلبية استخلاصًا صحيحًا[2].

والخلاصة أننا نلاحظ بالنسبة للمعارضة فى وقتنا الحاضر ما يأتى:

١- أنها اكتسبت مفهومها وأبعادها ـ لا من التعريفات المجردة فى الفكر السياسى والدستورى ـ ولكن من الممارسات العملية فى المجتمعات المعاصرة، وهذا ـ ولا شك ـ يعطيها قدرة متجددة على التطور.

٢- أنها ـ فى الأغلب الأعم ـ تتجسد فى أحزاب لها برامجها وأهدافها ووسائلها التى تحاول أن تحقق بها هذه الأهداف.

٣- أنها فى تجسدها الحزبى هذا لا يكون لها وجودها الواحد الدائم، فقد يتولى الحزب المعارض الحكم فيتحول الحزب الحاكم إلى «حزب معارض».

٤- أن وجودها فى صورتها الطبيعية السوية رهين بتوفر عدد من القيم السياسية والاجتماعية، أهمها الحرية بمفهومها الشامل.

(١) انظر: نيفين عبد الخالق: السابق ٢٩.

(٢) د. ثروت بدوى: النظم السياسية ٣٦٥.
وانظر كذلك د. الأنصارى: الشورى وأثرها ٣٦٢-٣٧٧.

٥- ومصطلح «المعارضة» يُطلق حاليًـا على «الحق السياسى» فى المراقبة والنقد والمناقشة والاستجواب، كما يُطلق على الحزب والأشخاص الذين يزاولون هذا الحق.

* * *

وإذا كان هذا ـ بإيجاز شديد ـ مفهوم المعارضة ووضعها فى وقتنا الحاضر ـ وخصوصًا فى المجتمعات الغربية ـ فمن حقنا أن نسأل: **إن كان للمعارضة مكان فى الإسلام.. وما طبيعة هذه المعارضة وأبعادها؟.**

وقبل أن نجيب على هذا السؤال يجب أن نضع فى اعتبارنا عددًا من الحقائق وهى فى نفس الوقت تمثل التزامات منهجية، وأهمها:

١- أن إبراز طبيعة المعارضة لا يعتمد على نصوص جاءت فى الشريعة الإسلامية ـ قرآنا وسنة ـ تفصل ملامح المعارضة وتقنن لها بقدر ما يعتمد على الوقائع والسوابق العملية والمساجلات التى وقعت فى صدر الإسلام، ولكنها ـ كما ذكرنا فى الفصل الأول ـ كانت ـ فى عهد النبوة والخلافة الراشدة ـ تعتمد على مرتكزات، وتنطلق من قواعد منضبطة، وتتنفس فى جو تهيمن عليه روح الشريعة الإسلامية، وتتحرك تحميها ضمانات قوية من العدل والحرية بمفهومها الشامل.

٢- أننا يجب ألاَّ نبحث فى المعارضة الإسلامية: حقيقتها وأبعادها وفى ذهننا المعايير والمقاييس والضوابط التى تحكم المعارضة فى المجتمعات السياسية المعاصرة، بل مقاييس العصر الذى وُجِدَت فيه على قدر إمكاناته وقدراته واعتباراته. وهذا المبدأ يجب أن نأخذ أنفسنا به أيضًا فى الحكم على الشخصيات التاريخية، فهم ـ كما يقول العقاد ـ أبناء عصورهم، وليسوا أبناء عصورنا؛ لذلك فنحن مطالبون بأن نفهمهم فى زمانهم، وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زمننا. والرجل الذى يصنع فى عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التى يقتدى بها أبناء كل جيل، ولا حاجة به إلى

الاقتداء بنا، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا، ويعمل ما يوافقنا ويرضينا[1].

٣- أن عصرنا ليس بخير العصور، وأننا لو ملكنا تبديله فى كثير من الأمور لبدلناه... وأن الفارق بينه وبين العصور الأخرى إنما هو فرق الألفة والاستغراب، فعصرنا مألوف لنا، وسائر العصور مستغربة فى أنظارنا، وكثيرًا ما يكون الاستغراب عرضيًّا سخيفًا، ومتعلقًا بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء[2].

ومن ثم كان من التعسف والخطأ أن يزعم زاعم أن الأوضاع السياسية - حتى فى أعرق الدول المعاصرة ديمقراطية - هى خير الصور وأرقاها على الإطلاق، فقد يكون فى عصر من العصور الماضية - حتى بمقاييس عصرنا هذا - ما هو أفضل بكثير فى الواقع السياسى والواقع الاجتماعى من عصرنا الحاضر. وما يقال عن الماضى يمكن أن يقال عن المستقبل.

* * *

ولكن بعض الكُتَّاب الإسلاميين يقعون فى خطأ كبير من ناحيتين:

الأولى: حين يخلعون - بلا داع - كثيرًا من المصطلحات السياسية والاجتماعية على مفاهيم وقيم إسلامية عريقة، كالديمقراطية والاشتراكية وغيرهما، بدلا من «الشورية» و «التعاونية التكافلية»[3].

والثانية: حين يجعلون من الإسلام «مشجبًا» يعلقون عليه كل ما يظهر فى

---

(١) العقاد: عبقرية عمر، ص ١٦٤.

(٢) السابق، ص ١٦٥.

(٣) والمسألة ليست شكلية لفظية - كما يعتقد بعض المفكرين العرب والمسلمين - إنما هى تتعلق بالجوهر فى صميمه على نحو لا يتسع المقام لشرحه. وصدق الشاعر العربى:

إذا نحن طامنّا لكلّ صغيرة ... فلا بد يومًا أن تُساغ الكبائر

ولكن فى «الديمقراطية» لنا كلام مفصل فى الفصل الرابع من القسم الأول.

عصرنا الحاضر من نظريات سياسية أو كشوف علمية، محاولين «تطويع» الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفقًا لهذه النظريات وتلك الكشوف، وكذلك الكاتب الذى راح يدعى أن **المقصود « بأقطار السموات والأرض »** الجاذبية الأرضية والغلاف الغازى، والنفاذ منهما لا يكون «إلاَّ بسلطان» والسلطان هو **«القدرة العلمية»** التى توصلت إلى ذلك باختراع سفن الفضاء. ويخلص الكاتب من قوله إلى أن القرآن تنبأ بذلك الاختراع العجيب مما يدل على إعجازه العلمى[1].

وواضح ما فى هذا التأويل من تعنُّت وتكلُّف يرفضهما العقل، ويسيئان إلى البلاغة القرآنية والإعجاز القرآنى نفسه مما لا يتسع المقام لشرحه، وفات أصحاب هذا الاتجاه ـ وهم حسنو النية ولاشك ـ أن هذه النظريات ـ والعلمى التجريبى منها بخاصة ـ ينقض بعضها بعضًا بمرور الزمن، مما يفتح الباب لأعداء الإسلام للطعن فى القرآن إذا ما «طوعنا» آية من آياته لنظرية أو مقولة علمية جاء بعدها ما ينقضها.

أذكر هذا وأنا أرى مفكرًا إسلاميًّا ـ له مجهوداته الطيبة فى مجال المباحث الإسلامية بعامة، والسياسى منها بخاصة ـ يحاول فى إحدى دراساته الجادة[2] أن يجد «للأحزاب» مكانًا فى عصر النبى وخلفائه؛ لأنه رأى ورأينا معه أن المعارضة فى أغلب دول العالم ليس لها وجود فعلى إلا فى ظلال النظام الحزبى، كما ذكرنا آنفًا.

وانطلق الكاتب يتعقب كلمة «الحزب» و «الأحزاب» فى القرآن والسنة والواقع التاريخى الإسلامى: فموقعة الخندق كانت بين النبى و«الأحزاب». وفى القرآن الكريم ترد الكلمة عدة مرات، مثل قوله تعالى:

---

(١) انظر فى نقد هذا الاتجاه كتاب الدكتور على عبد الواحد وافى: حقوق الإنسان فى الإسلام ٢٣٣ ـ ٢٣٧.

(٢) الدكتور محمد عمارة فى كتابه: الإسلام وحقوق الإنسان، وخصوصًا الصفحات ٨٧-١١٥.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1].

ومثل قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[2].

ويُكَبِّرُ المسلمون فى عيد الأضحى ويهتفون «. . . وهزم الأحزاب وحده». وفى الحديث النبوى الشريف: «**اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم**»[3].

وهذه الشواهد لاتخدم الكاتب فى محاولته تأصيل دعوته إلى ضرورة الأخذ «بالتعدد الحزبى» فى المجتمعات الإسلامية الحاضرة لتنشأ معارضة حرة، وذلك لسببين:

الأول: أن كلمة (الأحزاب) جاءت فى النصوص التى استشهد بها بمعنى «الجماعة الكافرة» المناوئة أو المحاربة للإسلام والمسلمين.

والثانى: أن معنى الكلمة هنا لا يمكن ـ بأية حال ـ أن ينصرف إلى «الحزب» بمفهومه الحالى الذى يعنى «تشكيلاً أو تجمعًا معينًا يلتقى على مذهبية محددة وبرامج مفصلة».

لذلك نرى أنه من الإسراف القول بأننا نستطيع أن نلمح فى عصر النبوة «ملامح جنينية لتجمعات قامت. . . وهى وإن لم تكن أحزابًا وتنظيمات إلاَّ أنها كانت شكلا من أشكال التمايز القائم على المصلحة ووجهة النظر»[4]. ويخلص الدكتور عمارة إلى أن هذا الوضع شهادة على قبول التجربة الإسلامية «للتعددية» فى إطار «وحدة نهج الإسلام وشريعته»[5].

ووجه الإسراف هنا ليس فى المقولة بقدر ما هو فى المستخلص منها؛ لأن

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

(٢) سورة ص: ١١. وانظر: سورة غافر، الآيتين ٥، ٣٠.

(٣) عمارة: السابق ٩٧، ٩٨.

(٤) عمارة: السابق ١٠٦.

(٥) السابق ١٠٧.

الصورة التى عرضها لم تعدم وجودها فى المجتمع الجاهلى، بل المجتمعات الإنسانية كلها من أول نشأتها حتى الآن، ومن ثم لا تمثل النتيجة التى استخلصها الكاتب مَلْمَحًا فارقًا مميزًا.

ولكن قد يكون وجه الإسراف هنا ناصلا، غير أننا نجده أشد وضوحًا فيما ذكره من وجود «جماعة لنساء المدينة بزعامة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (٣٠ هـ) لمجرد أن بعض النساء كلفنها أن تتوجه إلى النبى ﷺ بسؤال يدور فى خلدهن»[١].

ومن هذا القبيل ما ذكره عَمَّا سماه «بهيئة المهاجرين الأولين» تلك التى مارست ـ كما يقول ـ كل ما يمارسه «التنظيم السياسى» فى مثل مجتمع المدينة من اختصاصات ومهام[٢].

ويذكر الكاتب أن هذه الهيئة مارست المعارضة كما يمارسها الحزب السياسى، وتولت التحريض على عثمان إلى أن قُتل، وأنها أرسلت الكتب إلى الأمصار تدعو أهلها إلى القدوم إلى المدينة «لأن كتاب الله قد بُدِّل، وسُنة رسوله قد غُيرت، وأحكام الخليفتين قد بدلت...»[٣].

ويعلق على هذا الكتاب المزعوم الذى نسب إلى المهاجرين الأولين بأنه «بيان أصدرته هيئة ذات سلطات وحقوق عندما رأت أن خروجًا قد حدث عن العرف، واعتداءً قد تم على ما لها من سلطات وحقوق»[٤].

ويرى كذلك أن هذه الهيئة قد تكونت كما تتكون الهيئات السياسية فى مثل الفترة الزمنية والبيئة التى تكونت فيها[٥].

* * *

(١) السابق: نفس الصفحة.
(٢) السابق ١٠٨.
(٣) عمار: الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، ص ٦٦، ٦٧.
(٤) السابق ٦٧.
(٥) السابق ٦٨.

وقد ثبت على وجه التحقيق أن هذه الكتب المزعومة كانت منحولة مزورة، وأن الصحابة منها أبرياء. ويروى أن مروان بن الحكَم قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ: «هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج على عثمان؟!! فقالت: والذى آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا».

وممن تولى كِبْر وضع الكتب وخصوصًا على ألسنة أمهات المؤمنين «محمد ابن حذيفة» الذى كان ناقمًا على عثمان لأنه طلب إليه أن يستعمله فرفض، وخرج إلى مصر، وحرض على عثمان، ودعا إلى خلعه، ودأب على كتابة الكتب على لسان أزواج الرسول، ويأخذ الرواحل فيضمرها، ويجعل رجالا على ظهور البيوت ووجوههم إلى وجه الشمس لتلوحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر فى الكتب... ويجتمع الناس فى المسجد فيقرأ لهم الرسل هذه الكتب المزورة، فيقوم شيوخ ـ أعدهم ابن حذيفة ـ من نواحى المسجد بالبكاء. ويتفرق الناس لينشروا ما قرئ عليهم[1].

فلم يكن الأمر إذن أمر بيانات رسمية أو غير رسمية تصدرها «هيئة ذات سلطات وحقوق» اسمها «هيئة المهاجرين» وتصدر الكتب التى تدعو إلى ثورة الأمصار، إنما كانت حركة المعارضة التى هبت فى وجه عثمان سالكة طريق العنف إلى أن قتلته حركة غوغائية غير مشروعة، سعَّرها السبئية أعداء الإسلام، وبعض أصحاب المطامع والمطالب الدنيا.

والنظام الإسلامى ـ وهو يعتمد بصفة أساسية على الشورى التى تمثل مصدراً مهمًّا من مصادر المعارضة ـ لا يضيره ولا ينال منه ـ وخصوصًا فى مراحله

(١) انظر كتابنا: أدب الخلفاء الراشدين ٤٩٣ ـ ٥٠٦.

الأولى ـ ألاَّ تكون فيه أحزاب أو هيئات معارضة على النحو الذى صوره أو تصوره الدكتور عمارة، وأتعب نفسه فى سبيل ذلك، فقادته محاولته المصحوبة بحسن النية إلى افتعال ما لا وجود له، وفى ذهنه نظام المعارضة فى وقتنا الحاضر فى ظل الأنظمة السياسية المعاصرة، وخصوصًا النظام الديمقراطى.

لذلك يجب إذا ما حاولنا التعرف على المعارضة فى ظل النظام الإسلامى ـ وفى جوهر هذا النظام ـ أن نفعل ذلك وذهننا بمنجى من بصمات الأنظمة المعاصرة فى تحديد ملامح المعارضة، فلكل عصر ـ كما قلنا ـ مقاييسه ومعاييره. ومن أجل ذلك يجب أن يكون تعاملنا المباشر - لتحديد أبعاد المعارضة الإسلامية ـ مع القرآن الكريم والحديث الشريف، ومسلك النبى ﷺ وخلفائه الراشدين. وهذا لا يعنى إلغاء حقنا وحق الآخرين فى الموازنة بين المعارضة فى عهد النبى والخلافة الراشدة والمعارضة فى عصرنا الحاضر، أو غيره من العصور، فالموازنة شئ، وتحكيم معايير عصر فى عصر غيره شئ آخر.

إذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد فيها لفظة المعارضة صراحة، إلا أن هذا لا يعنى أن دلالتها ليست متضمنة فى ألفاظ أخرى وردت بالقرآن يدور معناها حول الاختلاف والمعارضة، ومنها: التنازع، والشجار، والجدل، والمجادلة[1].

فيمكن القول بأن (المعارضة) هى لفظة أخرى تُطلق ليراد بها معنى التنازع والشجار والمجادلة، وبذلك نرى أن الأمر الإلهى بطاعة الله والرسول وأولى الأمر من المؤمنين لم يمنع من الإقرار بوجود التنازع والاختلاف والشجار والجدل، وكلها روافد تنشأ منها ظاهرة المعارضة. وهذه الألفاظ أوسع وأعمق من مجرد المعارضة، فلفظة «التنازع»- وقد استخدمت بالفعل «تنازعتم»- تنطوى على تعبير حركى عن تناقض مَّا اقترن فيه الفكر أو القول بالعمل أو الفعل. وكذلك لفظة (الشجار) أتت كذلك بصيغة الفعل «شَجَرَ»، وهى تعبر

(١) نيفين عبد الخالق: المعارضة ٩٨.

عن الاختلاف فى الرأى الذى كثر واختلط. ويزيد على ماسبق لفظة «المجادلة» التى استخدمت بصيغة الاسم «المجادلة» وصيغة الفعل «وجادِلْهم»، وهى - فى بعض معانيها - تعبر عن شدة الخصومة واللدد فيها[1].

ومن ثم فإن ظاهرة المعارضة أو مبدأ المعارضة فى حد ذاته لا يلقى رفضًا أو تجاهلاً من القرآن باعتباره تعبيراً عن ظاهرة طبيعية فطرية[2].

ولكن هناك آية تتضمن مفهوم المعارضة بصورة أوضح وأقوى، وهى قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[3].

ففى الآية أمر بمجابهة من يتنكبون الجادة، ويحيدون عن الحق، والنهى عن المنكر ومحاولة إزالته، وكل أولئك يمثل معارضة عملية لواقع فاسد يحرمه الإسلام، وتنكره الأخلاق.

وبعبارة أخرى: تتضمن هذه الآية «رسالة» على المؤمن أن يضطلع بها، وهى تتمثل فى صورتين:

الأولى: هى الصورة الوقائية: وتعنى أن يتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتداء دون انتظار لوقوع المنكر.

والثانية: هى الصورة العلاجية: بعد أن يقع المنكر، ويرتكب الخطأ، ويسلك سبيل الفساد.

وهى الصورة التى تتبناها المعارضة بمحاولة اقتلاع هذه المفاسد كل بقدر استطاعته تدرجًا تنازليـًا، من التغيير باليد، إلى التغيير باللسان، إلى التغيير بالقلب، بمعنى تهيئة النفس، وتكثيف الطاقة الشعورية بتركيم كراهية هذا المنكر والنقمة عليه.

---

(١) السابق: ١٠٠.

(٢) السابق: ١٠١.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

وهذا «التغيير» النفسى، أو «التغيير» القلبى لايستهان به؛ لأنه يمثل مرحلة مهمة جدًّا نحو التغيير باليد بصفة خاصة، إذ أنه يُعْطِى القوة أو الطاقة النفسية التى تمكن المؤمن من التغيير الفعلى، ولأنها طاقة مختزنة راسخة فى أعماق النفس نراها قوية طويلة النفس إلى مدى بعيد، بل إن هذا «التغيير القلبى» ليتحول من الشعور الذى «يواجه المواقف»، والذى قد ينتهى بانتهائها إلى «حاسة رافضة» للمنكر فى كل صوره، بحيث تغدو فى نفس المؤمن خليقة تنضم إلى خلائقه الطيبة العليا.

* * *

وكان للمعارضة مكانها وصوتها المسموع فى صدر الإسلام، وقد ظهرت فى كثير جدًّا من المسائل وجوانب الحياة السياسية والاجتماعية، وفى ضوء هذا الواقع التاريخى يمكن التعرف على ألوان متعددة من المعارضة تبعًا للزاوية التى ننظر منها إليها، وتبعًا للأساس الذى نبنى عليه أقسامها وألوانها المختلفة[1]:

فهى تنقسم من ناحية التوقيت ـ أى الوقت الذى تقع فيه ـ إلى:

١- معارضة ابتدائية أو استهلالية: وتعنى أن يُبدى شخص أو جماعة رأيًا معارضًا لموقف أو واقع موجود، دون أن يطلب منه الرأى، أو دون أن تطرح المسألة للمشاورة.

ومثالها ما حدث يوم بدر من اعتراض الحباب بن المنذر على اختيار النبى

---

(١) أكرر ما أشرت إليه سابقًا من أن مفهوم المعارضة وأبعادها وألوانها وطوابعها... كل أولئك يستخلص بصفة أساسية من الواقع العملى التاريخى لعهد النبوة والخلافة الراشدة أكثر من استخلاصه من فكر مجرد أو نصوص مأثورة.

كما أنبه القارئ إلى أننا توخينا الإيجاز فى هذا التقسيم وفى الحديث عن هذه الألوان؛ لأننا لم نقصد بذلك إلا الإحاطة الشاملة السريعة بالمعارضة فى كل أحوالها، مرجئين تفصيل هذه الصور إلى فصول القسم الثانى، وهو الأخير من هذا البحث.

ﷺ للموقع الذى نزل به والمسلمون. وما حدث كذلك من اعتراض أحد المسلمين على أمر النبى آنذاك بعدم قتل بنى هاشم فى بدر.

وهذا اللون من المعارضة أكثر من غيره ارتباطًا أو ارتكازًا على قاعدة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»؛ لأن المسلم إذا رأى ما يعتقد أنه منكر أو خطأ مطالب بإبداء الرأى فيه ومحاولة تغييره والقضاء عليه.

٢- معارضة شورية: وهى التى تتولد نتيجة طرح مسألة للشورى والمناقشة وإبداء الرأى، ومنها: معارضة المسلمين رأى النبى ﷺ البقاء فى المدينة للدفاع عنها. ومعارضة المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين عرض أن يقود بنفسه جيوش المسلمين لقتال الفُرس.

* * *

ومن ناحية الكم أو العدد تنقسم المعارضة إلى:

١- معارضة فردية: بمعنى أن يكون المعارض فردًا يعبر عن وجهة نظره الخاصة، ومثالها: معارضة سعد بن عبادة لخلافة أبى بكر، وخلافة عمر - رضى الله عنهما - حتى مات بحوران وليس فى عنقه بيعة لإمام.

ويصدق هذا النوع أيضًا على المعارضة ما كانت من أفراد قلائل لا يمثلون وجهة نظر عامة أو شبه عامة، أو جانبًا من الناس له اعتباره.

٢- معارضة جماعية: وهى التى تكون تعبيرًا عن رأى مجموع الأمة، أو عن رأى جماعة لها اعتبار وكيان: كمعارضة المسلمين أبا بكر فى حرب الرِّدَّة، ومعارضتهم إياه فى بعث أسامة، ومعارضة المسلمين عمر فى الخروج بنفسه لقتال الفُرس.

ويدخل فى مفهوم هذا النوع ما يبديه فرد أو أفراد قلائل تعبيراً عن رأى الجماعة: كمعارضة السَّعْدين رأى النبى ـ عليه السلام ـ حين أراد النزول عن ثلث تمر المدينة مقابل رجوع غطفان وأهل نجد عن حصار المدينة؛ لأنهما بذلك يعبران تعبيراً صادقًا عن رأى الأنصار[1].

* * *

وعلى أساس حالة المعارضة نفسها، وحدّها الزمنى ارتباطًا بموضوعها، تنقسم المعارضة إلى:

١- المعارضة العابرة، أو ما يمكن أن نسميه معارضة المواقف: وهى المعارضة التى تنبثق فجأة، دون أن يسبقها عوامل مولدة أو تهيؤ نفسى، وهى تنتهى بكل آثارها بانتهاء الموقف الذى أثارها. ومثالها: معارضة أنس بن مالك عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ فى قتل الهرمزان، وكذلك معارضة المرأة المسلمة عمر حين أراد تحديد مهور النساء.

٢- المعارضة المتأنية: وهى تلك التى يمتد فيها النفس وحبل الحوار، وتُساق فيها الحجة، ويكون لها فى الزمن امتداد أو امتدادات، وغالبًا ما يكون لها آثارها الواضحة والخطيرة.

ومن أمثلة هذا النوع معارضة الفاتحين عمر بن الخطاب فى الإبقاء على أرض سواد العراق والشام ومصر فى أيدى أهلها دون توزيعها على من فتحوها بسيوفهم.

* * *

(١) لا أزعم بذلك أن السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) قد استشارا الأوس والخزرج فى هذه المسألة، وقد استجاب النبى لمعارضتهما وألغى الاتفاق الذى لم يبق لنفوذه إلاّ الإشهاد عليه؛ لأنه يعلم أن هذه المعارضة تعبير صادق عن رأى قوم سيقع عليهم عبء مثل هذا الاتفاق من خسارة مادية، زيادة على الأثر النفسى السيء الذى يترتب على إبرامه.

ويمكن تقسيم المعارضة من ناحية المشروعية إلى:

١- معارضة مشروعة: وهى تلك المعارضة التى لا تخرج ـ فى وسائلها وأهدافها ـ عن منطق الدين والعقل والمصلحة العامة بعيدًا عن الأثرة والهوى، وأغلب صور المعارضة التى عرضنا لها فى القسم الثانى من هذا البحث فى عهد النبى وأبى بكر وعمر من هذا النوع.

٢- معارضة غير مشروعة، وهى المعارضة لذات المعارضة: وهى المعارضة لغرض شخصى خاص يحرص صاحبه على تحقيقه ولو ترتب عليه التضحية بمصلحة عامة، أو الإضرار بالدين وإفساد العقيدة، وكل معارضات المنافقين من هذا النوع. ومنها معارضة المرتدين أبا بكر حين أصر على ألاَّ يفرق بين الصلاة والزكاة ومقاتلة من يفرق بينهما. ومنها المعارضة التى قامت فى وجه عثمان ـ رضى الله عنه ـ وانتهت كذلك باستشهاده. وأصرخ المعارضات غير المشروعة: معارضة الخوارج على بن أبى طالب، بل معارضتهم وخروجهم على جماعة المسلمين.

* * *

وقد تلتبس المعارضة بغيرها من الألفاظ والمصطلحات على الرغم من وجود فروق بينها، ولكنها تكون دقيقة خفية فى كثير من الأحيان، فالمعارضة والمخالفة مثلا يلتقيان فى أن كُلاً منهما مغاير أو مناقض فى المسلك والاتجاه لرأى أو موقف آخر، **ولكنهما يختلفان فى أمور، من أهمها ما يأتى:**

١- يغلب على المخالفة الطابع العملى، فأغلب صورها تتمثل فى إغفال التنفيذ الكلى أو الجزئى لأمر صادر من آخر يكون فى الغالب سلطة فوقية، كمخالفة الرماة أمر النبى ﷺ بعدم مغادرة موقعهم من جبل أُحد مهما كانت نتيجه القتال[1]. ومخالفة أبى عبيد بن مسعود الثقفى أمر عمر بن

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٥.

الخطاب الذى نهاه عن عبور النهر إلى الفُرس، فانهزم المسلمون فى موقعة الجسر، واستشهد أبو عبيد[1].

أما المعارضة فقد عرفنا أنها مواجهة رأى أو موقف برأى أو موقف آخر على طرف نقيض.

٢- المخالفة تمثل وقوعًا فى الخطأ يوجب العقاب أو اللوم، فهى ـ فى الغالب ـ أمر غير مشروع. أما المعارضة السوية فأمر مشروع يستمد قوته من طبيعة الإسلام وقيمه. ونرى فى الواقع التاريخى الإسلامى أن الرأى والرأى المعارض يواجه كل منهما الآخر، ثم ينفرد أحدهما بالمكان فى الساحة الإسلامية تبعًا للأسانيد الشرعية ومقتضيات المصلحة العامة.

ولكن هذا التفريق ليس على إطلاقه، فمن المخالفات ما هو مشروع، بل ما هو واجب يدعو الدين إلى أخذ النفس به، كمخالفة الباطل، ومخالفة الشيطان. ومن المعارضات ما هو منحرف وغير مشروع، كمعارضة الخوارج لعلى وجماعة المسلمين.

* * *

وتختلف المعارضة كذلك عن «النقد» بنوعيه: الفردى والاجتماعى، فهو يعنى إبراز الخطأ فى فعل أو قول بقصد التوجيه إلى ما هو أسمى وأفضل، ويكثر هذا اللون فى خطب الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ وهو ينقد أصحابه نقدًا مرًّا ويقرعهم وهو يراهم متثاقلين متقاعسين عن القتال. ولكن علينا ألاَّ ننسى أن النقد ـ وخصوصًا فى مثل هذه الصورة ـ لا يعدم بعض طوابع المعارضة الضمنية.

وإذا استثنينا المعارضة المنحرفة التى تهدف إلى تحقيق المصلحة الخاصة أو الحزبية على حساب الدين والأمة نجد الإسلام يتسع لكل أنواع المعارضة

---

(١) الطبرى ٣/ ٤٥٤-٤٥٩.

الأخرى التى ذكرنا من أنواعها: الوقائية، والعلاجية، والاستهلالية، والشورية، والفردية، والجماعية، والعابرة، والمتأنية، ما دامت تدخل فى نطاق المشروعية فلا تتعارض مع القواعد والقيم الإسلامية، بل تخضع لضوابط الشرعية، وتنطلق من منطلقات سوية، فى ظل ضمانات تمنعها من الانفلات والتسيب، وتحمى أصحابها من العدوان، وهذا ما سنفصل القول فيه، فى الفصلين التاليين.

* * *